شخصيات تاريخية

٥ ـ تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

قضى تيموستوكل البقية الباقية من حياته وهو يعمل على تنفيذ هذه السياسة ، ويكاد يكون هو الوحيد الذى سار فى هذا الطريق ، فهو لا يألو جهداً إلا بذله للنكاية بالعدو اللدود وهو إسبرطة ، ولكن الشعب الأثينى تخلى عنه ولم يسايره ، إذ داخلته الشكوك من ناحية ، فخشى خطره وأصبح يعتقد أن له مأرباً فى تنفيذ هذه السياسة ، لذلك كان وحده دون معين ولا نصير فى هذه الفترة الأخيرة من حياته وهى الواقعة بين معركة سلامين ومماته (من ٤٨٠ فى ٤٦٤/٤٦٣ تقريباً)

قضى تيموستوكل هذه الفترة شريداً طريداً حتى لم نعد نسمع عنه كثيراً ، بحيث تكاد تكون هذه الحقبة من تاريخ حياته غامضة ، هى غامضة لقلة الوثائق التى تتكلم عنه ، وبالرغم من هذه القلة نستطيع أن نتلمس الأخبار من بين السطور التى كتبت عنها والتى توجد لدينا ، فهذه الوثائق لا تتحدث عنه إلا فى فترات متقطعة ، ولكنها ، على ندرتها ، ثمينة جداً لأنها تخبرنا عن تيموستوكل وعن شىء من نشاطه ، فهى ترينا أن تيموستوكل الشيخ لا يختلف عن تيموستوكل الشاب . ألا يزال هو هو ، كله حركة ونشاط ، لا يعتريه اليأس ولا يفل من عزمه عظم المهمة التى ناط نفسه بالقيام بها ، فهو لا يحجم عن الانتقال من مكان إلى مكان للدس ضد إسبرطة والإيقاع بها أينما استطاع لذلك سبيلاً ، فنراه حيناً فى أرجوس يعمل على قلب نظام الحكم الأوليجاركى وإقامة النظام الديمقراطى مكانه ، وحيناً آخر فى دولتى إيليد وأركاديا . وهو فى كل هذه البلاد يقوض من أسس النظام الأوليجاركى الذى يؤيد الدولة الإسبرطية ويشجع قيام النظام الديمقراطى لكى تكون عوناً للدولة الأثينية ، وفى سبيل ذلك نراه لا يتردد عن أشق المهام ، كتأليف اتحاد من المدن الأركادية لمحاربة اسبرطة ، وينجح فى هذه المهمة ولكن اسبرطة له بالمرصاد إذ تتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاتحاد الإركادى وتتغلب عليه فى موقعة ديبايا (عام ٤٧٢/٤٧١ ق . م) ، تتفتح عينا تيموستوكل ويرى بوضوح كامل أن اسبرطة ما زالت قوية على بأس عظيم بحيث تستطيع التغلب على أعدائها ، فيحاول أن يسلك سبيلاً آخر ، إذ يسعى ، بعد هذا الفشل الذريع ، إلى النيل منها داخل حدودها وذلك بتقويض دعائم نظام حكومتها وإثارة المستائين ضدها من سكانها مثل البيريبيك والهيلوث . ولتنفيذ هذه السياسة نجده يتقرب من شخص آخر يشبهه فى المغامرة والجرأة وهو الملك الاسبرطى بوزانياس ؛ ونجح فى التفاهم معه على التآمر ضد الحكومة القائمة ، ويعمل الاثنان للاتفاق مع ملك الفرس ، ولكن المشرفين على الحكومة الاسبرطية وقفوا فى الكشف عن هذه المؤامرة والقبض على بوزانياس ، وقد ثبت لديهم أن تيموستوكل اشترك مع بوزانياس فى التآمر ضد دولتهم ، فطلبوا إلى أثينا معاقبته ، وتلبى أثينا هذا الرجاء وتستدعيه من حيث كان يقيم . ويدلنا هذا على مبلغ كراهيته من الشعب الأثينى حينذاك ، ولكنه لم يأبه لهذا الاستدعاء ولم يحفل به ، بل ظل فى الخارج ، ونحن لا نعرف فى أى مكان كان يقيم فى ذلك الحين ؛ ولكن كل ما نعرفه هو أنه كان يهرب من مكان إلى آخر خوفاً من أن يُقبَض عليه ويُحمَل إلى أثينا فتفتك به إجابة لرغبة اسبرطة ؛ أخذ ينتقل من بلد الى بلد حتى ألقى به عصا التسيار إلى بلد عدو من أعدائه هو أديمبتوس ملك « المولوس » فى شمال غرب اليونان ، وقد كان عداء هذا الملك لتيموستوكل شديداً جداً . ولكنه استقبله وأضافه بالرغم من هذه العداوة الشديدة وهذا البغضاء المستحكم ؛ لأن عادات الضيافة عند اليونان كانت قوية لا تبيح للشخص أن يطرد ضيفه ولو كان من ألد أعدائه ؛ بل ولم يقبل هذا الملك أن يسلمه إلى أعدائه ، وذهب إلى أبعد من هذا فشجعه على الهرب ونظم له الوسيلة وجهزه بكل ما يحتاج اليه من وسائل السفر ، فتمكن له الذهاب إلى « بيدنا » فى مقدونيا ، ومنها ركب السفينة قاصداً آسيا للقاء ملك الفرس ، ولكن زوبعة تهب على السفينة فتغيرها عن وجهتها حتى تصل إلى جزيرة ناكسوس فى بحر إيجه فيحاول قبطانها

الرجوع به إلى أثينا ، ولكنه مازال وراءه بالوعود الخلابة الجميلة حتى حمله على أن يتوجه به نحو مقصده ، ووصلت السفينة آمنة سالمة إلى شواطئ آسيا الصغرى . وهناك نزل منها فى هذه البلاد . وطئت أقدامه أرض « إفيز » ، فهل تظن أنه أخلد إلى الهدوء بعد ذلك ؟ وكيف السبيل إلى هذا ولا وطن له الآن يتعلق به ، ولا أرض يدافع عنها ، بل هو شريد طريد ؟ من أجل هذا صمم على مقابلة ملك الفرس ليرى ماذا هو فاعل به — وهنا يختلف المؤرخون فى شخص الملك الذى قابله تيموستوكل ، فيقول المؤرخ توسيديد إنه وصل إلى عاصمة الفرس حينما اعتلى أرتاجزرسيس العرش ، ويقول المؤرخ فاينياس ويوافقه على هذا الرأى بلاتارخوس إنه قدم نفسه ليوجرزسيس الذى طالما حاربه لا لأرتاجرزسيس — وهذا الخلاف بسيط لا يمنع الحقيقة الواقعة وهى أنه ذهب إلى عاصمة الفرس وقابل عاهل الفرس أيا كانت شخصية هذا العاهل ؛ وأن هذا قد أغدق عليه النعم والعطايا وخلع عليه كثيراً من الهدايا وعينه والياً على بعض المدن التى أخذ يسوسها حتى قضى نحبه وهو فى المنفى بعيداً عن وطنه وأرض آبائه وأجداده

هنا يختلف المؤرخون أيضاً فى الطريقة التى مات بها . فمنهم من يقول بأن ملك الفرس كلفه بقيادة حملة لمحاربة الأثينيين فى مصر ، ولكنه رفض أن يخون وطنه فانتحر لعدم استطاعته تلبية مولاه وسيده . ومنهم من يقول بأنه مات ميتة طبيعية فى عاصمة ولايته ببلدة « ماجنيزيا » فى شمال آسيا الصغرى بعد مرض لم يمهله كثيراً

* * *

ألا ترى إذن إلى خاتمة حياة هذا البطل العظيم ، كيف انتهت على هذا النحو من المذلة والعار بعد أن كان قد وصل إلى قمة المجد وذروة الرفعة والسلطان ؟ ألا ترى أن هذا من شأن العظماء ، لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة وإنما يعتريها الرفعة والانحطاط ؟ فأنت لا يمكنك بعد ذلك أن تظن أن تيموستوكل قد خان وطنه ، إذ لم يصل إلينا شىء يثبت أنه قام بعمل ألحق الضرر ببلاده ، بل استمر مخلصاً لها وفياً أميناً ، حتى أنه رفض الذهاب فى حملة إلى مصر لمحاربة أبناء وطنه ، كما ذهب بعض المؤرخين مثل سيمزيمبروث Stésimbrote فهو وإن كان قد لجأ آخر الأمر إلى ملك الفرس فإنما كان ذلك اضطراراً منه ، لأنه رأى وطنه يطارده فى كل مكان راغباً الفتك به ، فتخلص من هذا وهرب حيث قابل ملك الفرس الذى أغدق عليه النعم والعطايا ، وشأنه فى هذا لا يختلف عن شأن غيره من كبار اليونان الذين كانوا يضطرون إلى خدمة ملك الفرس حينما يرون بلادهم تنصرف عنهم وتسحب ثقتها منهم ، ونحن بعد هذا لا نستطيع أن نعتبر إلتجاءه إلى الفرس خيانة منه لبنى قومه ، وإنما كان ذلك لرغبته فى الحياة والإبقاء عليها . وكيف السبيل إلى كسب العيش ووطنه قد نفاه وشرده حتى أصبح لا يجد مكاناً يلتجىء إليه عند اليونان على سعة بلادهم وامتداد أطرافها . وقد يلومه بعض الناس على هذا الالتجاء إلى ملك الفرس ولا يبرئونه من تهمة خيانة وطنه ، إذ لو كان بريئاً حقاً من هذه التهمة لقدم نفسه إلى المحاكم وهى تفصل فى ذلك حتى ترجع الحق إلى نصابه ، ولكن غاب عن هذا الفريق أنه لم تكن توجد محاكم فى أثينا بالمعنى المعروف لدينا فى الوقت الحاضر ، وإنما كان الفصل فى قضايا الخيانة العظمى راجعاً إلى الشعب وحده ، ونحن نعلم ما كان عليه الشعب الأثينى من ثورة واندفاع حينما تعرض عليه القضايا السياسية التى تتطاحن فيها المصالح وتتنازع عليها الأحزاب ؛ كلا ! لم يكن ذلك فى استطاعة تيموستوكل ولم يكن هذا الالتجاء إلى ملك الفرس خيانة منه وغدراً بالمعنى الصحيح ، فهو يعتبر من غير شك خطأ ولكن لهذا الخطأ أسبابه ومبرراته التى تجعلنا لا نغلو فى الحكم عليه . وكيف نغلو فى الحكم على تيموستوكل وكلنا إعجاب بما قام به من أعمال يعجز عن القيام بها كثير من أفراد البشر ؟ ألم يتعهد بلاده فى وقت الخطر ويعدها خير إعداد للمعركة الفاصلة ؟ ألم يحرز لها نصراً حاسماً أبعد عنها الخطر الفارسى إلى زمن طويل ؟ ألم يكن هو من الأشخاص الرئيسيين الذين شجعوا على تكوين حلف ديلوس ونحن نعرف أن هذا الحلف تطور فيما بعد حتى أصبح أمبراطورية تعرف فى التاريخ القديم بالأمبراطورية الأثينية البحرية ؟ ألم يعمل بعد ذلك على التأسيس والإصلاح وإزالة الخرائب والأنقاض ببناء الأسوار وإقامة التحصينات ، حتى أصبحت أثينا ومعها بيريه قلب بلاد اليونان بل ومركز الحضارة اليونانية حتى قال عنها بركليس « إنها أصبحت مدرسة اليونان